مجلة طبنـــة للدراسات العلمية الأكاديمية ISSN 2661-7633 / EISSN 2716-8883

السنة: 2022 المجلد: 05 العدد: 01 ص.ص: 1212-1227

سلطة الثقافة وثقافة السلطة: قراءة ثقافية في تمثيلات الأنا المثقف والآخر السلطوي في رواية أشباح المدينة المقتولة لبشير مفتي

The power of culture and the culture of power: A cultural reading in representations of the cultured ego and the authoritarian other In the novel "Ghosts of the Murdered City" by Bachir Mofti

أحمنه مشاشو[1*]،مخبر السرديات والأنساق الثقافية، جامعة سطيف 2، الجزائر،

insmachachou@gmail.com

عقيلة محجوبي[2]، جامعة سطيف 2 ، الجزائر، Bm.akila@yahoo.fr

تاريخ إرسال المقال: 02-08-2021 تاريخ قبول المقال: 16-05-2022.

الملخص:

للسلطة ثقافتها وللثقافة سلطتها، والعلاقة بينهما شائكة وصراعية؛ ففي حين ترتكز السلطة على بنيات معرفية بهدف التحكم في الجماهير والهيمنة على الثقافة، ترتكز الثقافة على سلطتها الرمزية وتأثيرها على الأتباع في مواجهة السلطة؛ لذلك تحاول هذه الدراسة مقاربة إشكالية علاقة المثقف بالسلطة، من خلال البحث في تمثيلات الأنا المثقف والآخر السلطوي في رواية أشباح المدينة المقتولة لبشير مفتي.

الكلمات المفتاحية: ثقافة السلطة وسلطة الثقافة، التمثيل، الأنا والآخر، رواية أشباح المدينة المقتولة.

Abstract:

The authority has its own culture and the culture has its authority, and the relationship between them is thorny and conflictual. While authority is based on cognitive structures with the aim of controlling the masses and dominating culture, culture is based on its symbolic power and its influence on followers in the face of authority; Therefore, this study attempts to approach the problematic of the relationship of the educated to power, by looking at the representations of the cultured ego and the authoritarian one in Bachir Mofti's novel, The Ghosts of the Murdered City.

Key words : The culture of power and the power of culture; representation; the ego and the other; the novel of Ghosts of the Murdered City.

* أحمنه مشاشو.

مجلة طبنـــة للدراسات العلمية الأكاديمية ISSN 2661-7633 / EISSN 2716-8883

السنة: 2022 المجلد: 05 العدد: 01 ص.ص: 1212-1227

مقدمة:

تسعى كل الأنظمة السياسية الشمولية إلى التحكم في الجماهير والهيمنة على الثقافة، فتستند على بنيات ثقافية محدّدة كالتقنّع بقناع الهوية والشرعية التاريخية، والتمترس خلف خطابات القومية وتضخيم الذات إيديولوجيا، كل ذلك من أجل تقييد فكر الأفراد وتعليبهم داخل شبكة من التحديدات الثقافية، والتي يعتبر الخروج عنها وعن إطارها، مروقا يستدعي تدخّل المؤسسات المختلفة لتقويمه.

تعمل السلطة بالارتكاز على إمكاناتها الدعائية، ومن خلال مؤسساتها: الأمنية، الثقافية، الدينية، الاجتماعية، النقدية والرقابية ... على مصادرة وعي الجماهير، وصياغتها بما يتفق ومصالحها، مستخدمة في ذلك سلاح الإغراء والتهديد لتحييد الثقافة وعزل الصوت المخالف، فما يخيف السلطة من الثقافة هو ما تحفّز عليه من وعي كما يقول جاك ديريدا، فتغدو الجماهير– نتيجة لذلك– تائهة مسلوبة الإرادة، بل لقد نجحت السلطة القمعية، الأحادية والانفرادية، في تشكيل مجتمعات هجينة، مؤدلجة وبلا هوية واضحة، كما نجحت في صياغة فرد لا منتمي، خاضع لأنساق معرفية تصنعها السلطة وتزكّيها.

تستند الثقافة في المقابل على سلطتها الرمزية وتأثيرها على الأتباع في مواجهة السلطة؛ وتستخدم لذلك سلطة المعرفة والتعبئة التوعوية من أجل خلخلة النظام وتغيير السلطة، إنطلاقا من يقينها بأن خطاب الثقافة لا بد أن يعبّر عن الضمير الشعبي وآماله وآلامه، فالثقافة هي صوت لكلّ المكوّنات الاجتماعية والثقافية المهمشة، ودورها يكمن في كشف خبايا السلطة وتناقضاتها وتلاعباتها، ومهمتها تشريح المنجز السلطوي المأساوي الراهن وفتح نافذة على المستقبل المأمول.

تنبثق قدرة الثقافة على التغيير من إنتاجها لرؤى وتصورات وأفكار تفضح ممارسات السلطة، بل إن الثقافة تمتلك القدرة على إعادة بناء المجتمع حين تنأى بنفسها عن مغريات السلطة، وتواجه الأنساق السلطوية القائمة، فتكسر بذلك يقينياتها ومسلّماتها وتفتح الباب على مصراعيه أمام نسائم التغيير.

لذلك تحاول هذه الدراسة – وفق مقاربة ثقافية – أن تبحث في إشكالية علاقة المثقف بالسلطة في المنجز السردي الجزائري، وبالخصوص من خلال البحث في تمثيلات الأنا المثقف والآخر السلطوي في رواية أشباح المدينة المقتولة لبشير مفتي.

المبحث الأول: ثقافة السلطة.

المطلب الأول: مرتكزات السلطة

لا شك أن تبنّي الإنسان لمختلف أشكال السلطة قد أملته ظروفه التاريخية والاقتصادية والاجتماعية، فالمتتبع لتاريخ البشر العام أو لتاريخ الأفكار، سيجد أن السلطة كانت نتاج احتياج إنساني واقعي وليست من باب الرفاهية الفكرية « فوجود السلطة ضرورة حتمية في مجتمع فيه مصالح وطبقات وطموحات»[1]، هذه المصالح تحتاج إلى رعاية وتسيير، والطبقات تحتاج إلى أمن وطمأنينة، والطموحات تحتاج إلى آفاق تضمنها السلطة وتعمل لأجل توفيرها.

لكن الطبائع البشرية، وغلبة خلق الأنانية والنوازع الاستبدادية، نحت بالسلطة نحو الانفراد والاستعلاء والاستغلالية، فأحاطت نفسها بسياجات حمائية، واستغلت في ذلك مختلف الخطابات لتمنح نفسها الشرعية « فما من نظام سياسي يستطيع على المدى البعيد أن يضمن لنفسه ثقة الناس، أي طاعة أفراد المجتمع، دون الاستناد إلى أشكال معيّنة من الشرعنة ... والمصدر الأساسي للشرعية هي البنى المعيارية لمجتمع ما، أي اللغة والانتماء الاثني والتقاليد والثقافة العقلية»[2]، ومن أجل أن تحتفظ بهيمنتها تنتج السلطة ثقافة متخمة بالخطابات، تتجلى مثلا «في الخطاب الديني (الذي بإمكانه أن يدعم الاعتقاد في الحق الإلهي للملوك أو في محبة الإله للمجتمع التراتبي)، وفي الخطاب العلمي (الذي يمكن أن يعزز النخبة الحاكمة بخصوص النظرية الداروينية البقاء للأقوى)، وفي خطاب الموضة (الذي بوسعه أن يدعم شعبية القادة من خلال تعزيز محاكاة الملابس...)... وكذا في خطاب القانون»[3].

فمنذ حضارات بلاد الرافدين، ومرورا بالفراعنة واليونان القديمة، وحتى العصر الوسيط، كانت السلطة التيوقراطية تستمد شرعيتها من الدين والطقوس والآلهة والأساطير، بل كثيرة هي الأنظمة التي ألّهت الحاكم استنادا إلى سرديات كبرى، ثم ما لبثت السلطة أن اخترعت لنفسها في القرون الموالية شرعيات

[1] حسين محسن محمد ، المثقف اللامنتمي في التراث الإسلامي، دراسة عن قمع الدولة للفكر الآخر، ط 1، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، دون بلد، 2016، ص 44.

[2] المسكيني فتحي، الكوجيطو المجروح، أسئلة الهوية في الفلسفة المعاصرة، ط1، منشورات الاختلاف، ضفاف، الجزائر، بيروت، 2013، ص 186-187.

[3] غرينبلات وآخرون، التاريخانية الجديدة والأدب، تقديم وترجمة لحسن أحمامة، ط1، المركز الثقافي للكتاب، الدار البيضاء/ بيروت، 2018، ص 116.

أخرى مستمدة من انتصارات ثورية وإنجازات تاريخية أغلبها مختلقة ووهمية، لتركن أخيرا إلى شرعية ديموقراطية عمادها انتخابات صورية تعمل على تزويرها للبقاء في الحكم.

ليس في نيتنا أن نخصّص هذا المبحث لمناقشة نظريات نشوء السلطة، إنما أردنا فقط أن نثبت أن وجود السلطة ضرورة لرعاية مصالح الناس، ومهما كانت طرق تشكيلها وسبل الوصول إليها (وراثة، تزكية، تعيين، انتخاب، انقلاب ...)، فإن السلطة الحاكمة في الأنظمة غير الديمقراطية سريعا ما تنقلب على مصالح الناس، وتعتني بمصالحها الخاصة؛ فالفهم السلطوي للحكم «فهم انقلابي، يعتمد على تغليب الإرادة على التاريخ، والعنف على الإقناع»[1]، وحتى الشعوب التي قامت بثورات التحرير، عملت الأنظمة الاستبدادية على تحويلها إلى «كتل سكانية قابلة للاستهلاك اليومي الفارغ أو المفرغ من وقع التاريخ»[2]، كما سعت السلطة إلى تحقيق انصياع القطيع، عبر توجيه جهودها نحو الأفراد، فالفرد يمثل«النواة الأولى لارتكاز عمل السلطة وبث مفاعيلها من أجل أن تظمن [تضمن] الخضوع التام للفرد عن طريقين: يقوم الأول على قولبة الفرد تبعا لمقتضيات السلطة، أما الثاني فيقوم على دمج الأفراد في هوية معلومة ومعروفة ومحدّدة تحديدا كليا ونهائيا»[3]، وبذلك تستطيع السلطة بكل بساطة«تفريغ الوعي من الدور الفاعل الذي يقوم به في التمكين من فهم العالم واستيعاب القضايا التي تشغل الأفراد»[4]، عبر اختزال الماضي والحاضر والمستقبل في سردية هووية كبرى.

المطلب الثاني: أشكال السلطة

ليس للسلطة شكل محدّد وثابت، فالسلطة ليست بالضرورة الطبقة السياسية الحاكمة فقط، صحيح أنها الطرف المهيمن، ولكن فروعها المؤسسية هي من يعمل ضمن دائرة استراتيجية هدفها حماية مصالح السلطة بالسلطة؛ بمعنى أن السلطة الفعلية تتخلى ظاهريا عن نسبة من صلاحياتها لمؤسساتها الفرعية، وتلك المؤسسات في مجموعها هي ما يشكّل السلطة، أي أن المؤسسات التي تستعين بها السلطة لتسيير مصالحها ما هي إلى بنيات متجزئة من نظام كلي هو السلطة.

[1] حسين، محسن محمد ، المثقف اللامنتمي في التراث الإسلامي، دراسة عن قمع الدولة للفكر الآخر، مرجع سابق، ص 07.
[2] المسكيني، فتحي، الكوجيطو المجروح، أسئلة الهوية في الفلسفة المعاصرة، مرجع سابق، ص 219.
[3] كاظم علاء جواد، الفرد والمصير، بحث في الإنثروبولوجيا الثقافية، د ط، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2011، ص 124.
[4] شلنج كرس، الجسد والنظرية الاجتماعية، ترجمة منى البحر، نجيب الحصادي، ط 1، دار العين للنشر، القاهرة، كلمة، أبو ظبي، 2008، مقدمة المترجمين، ص 12.

إذن، فالسلطة لا تتحدّد في شكل معيّن، فهي «متوقعة في نفس الآن داخل مؤسسات معينة، المحكمة، والكنيسة، والإدارة الاستعمارية، والعائلة البطريركية ... »[1]،السلطة تتوزع في المؤسسة الأمنية، والقضائية، والدينية، والاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، والإعلامية، والنقدية ... إنها غير محدّدة بشكل واضح، نهائي وقطعي، لكنها «منتشرة من لا مكان إلى كل مكان، ومتشعبة في كل العلاقات الاجتماعية إلى حد أن جميع الصراعات "التصادمات" وسط الفرق الاجتماعية تصبح مجرد عرض للخلافات السياسية»[2].

إن دينامية السلطة وانتشارها في كل مجالات الحياة، وفي جميع الفضاءات الاجتماعية والثقافية، يوصلنا إلى نتيجة صادمة «بكون لا شيء خارج السياسة»[3]، بل أن حتى الثقافة وإنتاج المعرفة«جزء لا يتجزأ من إنتاج الروابط السلطوية ... ثمة تلازم بين السلطة والمعرفة إذ لا توجد علاقة سلطوية من دون القانون الملازم لحقل معرفي»[4]، فالسلطة إذن«نظام ذهني يكمن وراءه تصور معرفي»[5]، ولذلك يرى الفيلسوف فوكو بأن السلطة «ليست مجرد تشكيل للعلاقات الاجتماعية من خلال عملية ديناميكية داخل المنتج الثقافي، ولكنها أساس منطقي شمولي في عملية التصوير الجمالي لأشكال هذه السلطة في الخطاب الثقافي»[6].

المبحث الثاني: سلطة الثقافة

المطلب الأول: من المثقف؟

الشائع أن المثقف هو صاحب المعرفة الموسوعية، ولكن هل ينحصر دور المثقف في امتلاك المعرفة؟ طبعا قد ينطبق هذا التحديد على فئة من المثقفين الراكنين للطمأنينة بعيدا عن وجع الدماغ والمواجهة، إنهم المثقفون الانعزاليون والاغترابيون، إنهم ذلك النموذج الذي تحدّث عنه جوليان بندا«أي

[1] غرينبلات وآخرون، التاريخانية الجديدة والأدب، مرجع سابق، ص 116.
[2] نفسه، ص 119.
[3] نفسه، ص 121.
[4] كمالي مسعود، تصور الآخر تمييز ممأسس وعنصرية ثقافية، مجلة الاستغراب، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، بيروت، العدد 10، السنة الرابعة 1439 هـ شتاء 2018، ص 175.
[5] الغذامي عبد الله محمد، القبيلة والقبائلية أو هويات ما بعد الحداثة، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/بيروت، 2009، ص 219.
[6] عليمات يوسف، جماليات التحليل الثقافي، الشعر الجاهلي نموذجا، تقديم عبد القادر الرباعي، ط 1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2004، ص 28- 29.

صورة المثقف المنزه عن الأهواء والغايات، المترفع عن المصالح الذاتية، ويرى أن مملكة الحق والعدل والحرية ليست من هذا العالم»[1]، ولكن المثقف الحقيقي لا يتحدّد انطلاقا ممن هو، وإنما بالأثر الذي يتركه في المجتمع والتاريخ والثقافة، إنه يتحدّد«بالاعتماد على ما يقوم به في شتى ميادين الفكر»[2]، فالمثقف من يعكس الحياة انعكاسا مباشرا، هو من وصفه غرامشي بـ«المنخرط في واقعه وصاحب المشروع الذي يسخر فكره وقلمه لتغيير المجتمع والعالم»[3]، إنه الفرد «الذي يمتلك القدرة على بناء المجتمع، إنه الكائن الذي يمتلك القدرة على الدخول في تشعبات التاريخ والإمساك بناصية الوجود »[4].

الدخول في تشعبات التاريخ والإمساك بناصية الوجود تعني أن المثقف لا بد من أن «يحاور التاريخ عبر حوار مع الماضي والحاضر بحثا عن الذات ... بحثا عن الحياة»[5]، وللبحث عن الحياة، لا بد من مواجهة الكمون عبر كشف منظومات السلطة الاستبدادية وآليات اشتغالها، ومن ثمة تقويض مقولاتها المركزية الموظّفة في التحكم في مصائر الشعوب. إن دور المثقف يكمن في«العمل على تحرير الذات، أي زعزعة ولائها للماضي والجاهز والمكرس، والتوجه نحو مغامرة التلفع بالجديد والمباغث والمربك»[6]، فقدرة المثقف على التغيير تنبع من إنتاجيته«لأفكار ورؤى وتصورات، وبالتالي أنماط ثقافية لا يمكن أن تتلاءم مع صورة العالم كما هو قائم، عندها يدخل في صراع مرير مع الأشكال القائمة عن الحياة»[7].

تمثل فئة المثقفين «ذروة الوعي بالواقع وطلب الحق والحقيقة باستماتة، الأمر الذي يؤهلها لأن تفكر عن سواد الناس وتقرر عنهم أو تخطط لهم، أو في الأقل يؤهلها لكي تنير الدرب أمامهم وتسهم في تشكيل وعيهم »[8]، وبذلك فإن المثقفين هم تشكيلة نخبوية لها حضورها الفاعل في الواقع السياسي والثقافي والثقافي والاجتماعي و« لها وظيفة فكرية، عقلية، أخلاقية، تحديثية، والتي تشكّل مرجعية أساسية للأفكار

[1] حسين محسن محمد ، المثقف اللامنتمي في التراث الإسلامي، دراسة عن قمع الدولة للفكر الآخر، مرجع سابق، ص 14.
[2] نفسه ، ص 10.
[3] نفسه ، ص 14.
[4] كاظم، علاء جواد، الفرد والمصير، بحث في الإنثروبولوجيا الثقافية، مرجع سابق، ص 132.
[5] بعلي حفناوي، في نظرية النقد الثقافي المقارن، المنطلقات، المرجعيات، المنهجيات، ط 1،منشورات الاختلاف، الجزائر، 2007، ص 85.
[6] المصباحي عبد الرزاق، الأنساق السردية المخاتلة، ط 1، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2017، ص 18.
[7] كاظم علاء جواد، الفرد والمصير، بحث في الإنثروبولوجيا الثقافية، مرجع سابق، ص 31.
[8] حسين محسن محمد ، المثقف اللامنتمي في التراث الإسلامي، دراسة عن قمع الدولة للفكر الآخر، مرجع سابق، ص14.

السائدة في المجتمع، والتي تمارس دورا طليعيا في ضبط القيم، والممارسات الاجتماعية وتسعى لتطويرها وتجديدها»[1].

المطلب الثاني: علاقة المثقف بالسلطة

أنشأت الثقافة السلطة، وشكّلت السلطة الثقافة، وبقي وضع المثقف مرتبطا بوضع السلطة وموقعها؛ فهما «إما في حالة صراع، وإما في حالة هدنة، وذلك حسب الهوية الطبقية لكل من المثقف والسلطة»[2]حسب رأي فوكو، لكن الوضع الغالب هو حالة الصراع، فلطالما كانت العلاقة بينهما شائكة، خاصة بالنسبة للمثقف المستقل، الذي ينأى بنفسه عن السلطة، والذي يغدو قادرا على اتخاذ مواقف غير ودية منها ومن أطروحاتها.

علاقة المثقف بالسلطة محفوفة بالمخاطر« فالمثقف ينتظم في علاقة توتر مزمنة مع السلطة، علاقة ضدية، طرفها السلطة (إجراءات قمعية) وطرفها الثاني (المثقف) وهي تهدف إلى إقصاء دوره، بوصفه مرجعية تسهم في تعميق وعي المجتمع بنفسه في حقبة تأريخية معينة، » [3].

والواقع أن المنتسب للثقافة يمكن أن يحيا في إحدى الطبقتين: الأولى لا تضل ولا تشقى، متمثلة في المثقّف المتزلّف، الذي تكمن مهمته في الإشادة بمنجزات السلطة وتبنى خياراتها، فهو المثقف المتواطئ «الذي يضع نفسه في القالب الذي تريده السلطة، ويتحدث بلغتها، ويجتهد في أن يسبق كل إجراءاتها باقتراحها»[4]، بل لقد تحوّل المثقف المنضوي تحت جناح السلطة« إلى وحش دكتاتوري انتهازي، لا يرى سوى المنفعة وتبادل المصالح بين الشرائح المحدودة».[5] أما الطبقة الثانية متمثلة في المثقف المختلف، فتمزقها الهواجس وهي إما مغيبّة قسرا (في السجون لتكميم أفواهها) أو مغيبة في طيات الإهمال، فالأمر متعلّق بالمسافة التي يقفها المثقف قريبا أو بعيدا عن السلطة.

[1] بعلي حفناوي، في نظرية النقد الثقافي المقارن، المنطلقات، المرجعيات، المنهجيات، مرجع سابق، ص 17.
[2] نفسه ، ص 155.
[3] موسى صالح بشرى، بويطيقا الثقافة، نحو نظرية شعرية في النقد الثقافي، ط 1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2012، ص 32.
[4] حسين محسن محمد ، المثقف اللامنتمي في التراث الإسلامي، دراسة عن قمع الدولة للفكر الآخر، مرجع سابق، ص 14.
[5] المناصرة عز الدين، الهويات والتعددية اللغوية (قراءات في ضوء النقد الثقافي المقارن)، د ط، الصايل للنشر والتوزيع، عمان،2014، ص 75.

لقد انخرط كثير من المثقفين في مؤسسات السلطة، وانتسبوا إليها عن اقتناع بمشروعها، ولكن مع تعاقب الزمن، وانكشاف حقائق «الميول الاستبدادية أو ميول الاستغناء عن جهود بعض المثقفين لسبب أو لآخر، صار المثقف (غير المطلوب) في وضع بدا مرتابا من نوايا السلطة»[1]، فانتقل إلى المعارضة السلمية مبديا آراءه وتخوفاته، بينما بقيت السلطة تشتغل عبر آلياتها المؤسسية بازدواجية؛ فهي تعمل على «تدجين أو تصفية المخالف الذي تعتبره خصما وحتى عدوا لدودا، وبالقدر نفسه تمنح خدامها كل وسائل العيش الرغيد، وتفوض لهم سلطا كبيرة ضمن تراتبية محسوبة»[2].

المبحث الثالث: تمثيلات الأنا المثقف والآخر السلطوي في الرواية

لقد شكّل سؤال الثقافة وعلاقته بالسلطة إحدى التيمات الأساسية في الخطاب السردي العربي المعاصر«بوصف السلطة آخر، وبكون هذا الآخر يدخل في علاقات إشكالية مع الأنا، ويجسد ثنائية تضادية وصراعية في علاقتهما ... لا سيما أولئك الذين تبنوا موقفا مناهضا من السلطة»[3]؛ فالثقافة تشكل طبقة من المتنورين المخالفين لرؤى السلطة، وتنتج نصوصا تضم «دالات وشفرات وتمثلات تصف السلطة في علاقاتها مع الآخرين»[4]، وفي سياق مضاد، تشكّل السلطة طبقة من النافذين وتمتلك أساليب الإغراء وأدوات القمع، تستعملها في إسكات الصوت المخالف، حيث يمارس النسق السلطوي ضغطا على الثقافة وعلى الأفراد المختلفين«حتى يلتحقوا بنظامه القاهر القائم على تراتبية محسوبة وفق موازين خاصة للقوى»[5]من أجل إنتاج خطاب مطابق/ مساير.

المطلب الأول: سلطة الكتابة/ ثقافة البولسة

من بين التمثيلات التي رآها المؤلف مناسبة للكشف عن المضمر في علاقة الثقافة بالسلطة في رواية أشباح المدينة المقتولة، تمثيل الكاتب/الشاعر كنموذج عن المثقف المختلف الذي لا يساير أطروحات السلطة السياسة القائمة، ويعرب عن آرائه ورفضه لإجراءاتها وطرائق تسييرها للمجتمع.

[1] حسين محسن محمد ، المثقف اللامنتمي في التراث الإسلامي، دراسة عن قمع الدولة للفكر الآخر، مرجع سابق، ص 15.
[2] المصباحي عبد الرزاق، الأنساق السردية المخاتلة، مرجع سابق، ص 95.
[3] السليماني أحمد ياسين، التجليات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر في الشعر العربي المعاصر، ط 1، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2009، ص 353.
[4] ساردار زيودين، فان لون يورين، الدراسات الثقافية، ترجمة وفاء عبد القادر، ط 1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003، ص 18.
[5] المصباحي عبد الرزاق، الأنساق السردية المخاتلة، مرجع سابق، ص 44.

اسم الكاتب الذي تتحدث عنه الرواية مجهول، وحتى ابنه الذي يروي حكايته غائب الاسم حاضر الكنية «الزاوش»، وغياب الاسم دلالة على التهميش والإقصاء والإبعاد، وحتى كنية الزاوش في المخيال الشعبي الجزائري تعني العصفور الصغير، وبين الإقصاء والتصغير ضاعت مكانة المثقف في السياق التاريخي والثقافي للبلد.

هذا الكاتب انضم للثورة رفقة السلطويين الحاليين الممسكين بزمام البلد و« ساهم على مساعدتهم من خلال عمله كمدرس في كتابة التقارير، والبيانات، والخطب، والشعارات الدعائية، لكنه بقي ينأى بشعره بعيدا عن هذا كله، ويحتفظ به نقيا خارج هذا السياق العنيف، فلم يدمج نصوصه في الثورة، وظل منعزلا بشعره عنها ... لقد ظل يعتبر الشعر فوق اللحظة، كذلك الوهج المسكون بالتاريخ البعيد، والمستقبل الكوني، وإلا فهو مجرد كلام يؤجج العواطف السطحية»[1]، إنه نموذج للمثقف الملتزم بقضايا وطنه، المسهم بفكره ونشاطه في الثورة، ولكنه يبقي لنفسه فسحة مع الثقافة الحقة، ويتعاطى الشعر بعيدا عن الشعارات الثورية، والشعرية المناسباتية.

تقول الأم لابنها:«والدك صريح وشفاف، عندما يرى الظلم لا يسكت، ويتحداه، وهو يعرف أنه لا يملك غير رأسمال رمزي اسمه الصدق والشجاعة، فلا مال، ولا جاه، ولا حماية تحميه، وهو يفضل هذا على أن يبيع نفسه، أو يوسخ ماضيه»[2]، وتقول عنه الجارة زهية: « والدك رجل عنيد وشجاع لكن لا يستطيع الإنسان أن يكون شجاعا أمام القوة التي لا تحترم كرامة الشجعان»[3].

سيحتفظ المثقف بسماته: الصراحة، الشفافية، الشجاعة، العناد ورأس مال رمزي، ما لم يصطدم بالسلطة واختياراتها، ما لم يخرج عن السياقات التي ترسمها السلطة، تحكي الأم لابنها احتكاك والده الأول مع السلطة: « عندما وقع الانقلاب على الرئيس بن بلة من طرف الكولونيل بومدين، طلبت جريدة فرنسية من والدك أن يكتب عن ذلك، فكتب مقالا انتقد فيه المنقلب عليه، والذي قاد الانقلاب، وصارح الجزائريين بمخاوفه على مستقبل بلده»[4]، أن تنتقد المنقلب عليه فهذا ممكن، لكن أن تنتقد المنقلب فهذا ما يستوجب تدخل مؤسسات السلطة «نشر المقال، وفي الغد جاءت الشرطة السرية واعتقلته على الفور ... غاب

[1] مفتي بشير، أشباح المدينة المقتولة، رواية، ط 2، منشورات ضفاف، بيروت، الاختلاف، الجزائر، 2017، ص 24.
[2] نفسه ، ص 26.
[3] نفسه ، ص 28.
[4] نفسه ، ص 27.

شهرا بكامله ثم تركوه ... عندما رأيته بعد ذلك الغياب المؤلم لم أعرفه من فرط نحوله، وهزال جسمه، والتعذيب الذي تركوه على جلده»[1].

هذا القمع البوليسي جزاء ما ارتكبت يدا الكاتب من جناية نقد السلطة، ليس كافيا في نظر السلطة، فالمثقف خطر دائم ولا بد من إجراءات إضافية تفاديا لشره، وهذا ما حصل، فقد اكتشف الشاعر«أنه مراقب، وأن شخصا يتبعه أينما ذهب، وأن اسمه ممنوع من النشر في أي جريدة أو مجلة وطنية تصدر بداخل البلد»[2]، أي عقوبة أقسى من منع كاتب من الكتابة والنشر؟ فقد بقي الشاعر في عزلة سيكولوجية عميقة، ولم يرفع عنه حظر النشر إلا بعد تغير السلطة بتغير رأسها« ومجيء رئيس عسكري جديد اسمه الشاذلي، وهي الفترة التي نشر فيها عدة كتب شعرية على حسابه الخاص، رغم أن كل الكتاب والشعراء في السبعينيات والثمانينيات كانوا ينشرون في مطابع الدولة وتحت رعايتها المادية»[3].

لا ترتكز السلطة في قمعيتها على البوليس فقط، بل تشرك أيضا مؤسساتها الإعلامية والنقدية، فبعد أن نشر الشاعر دواوينه لم ينتظر «أن يتكلم النقاد والصحفيون عن كتبه، كان يعرف أن اسمه لا يزال ضمن القائمة السوداء، قائمة المغضوب عليهم، فلا عجب أن تصمت الصحف كلها حتى عن ذكر خبر صدورها حينها، ولكن ذلك الصمت لم يطل كثيرا، وبدل الحديث عن تجربة فريدة في الشعر، جاءت مقالات ساخطة وساخرة من بعض الصحفيين الذين يطبقون تعاليم الحزب الواحد بالحرف الواحد»[4].

تعمل السلطة على الجانب الوحدوي في تشكيل الأفراد وصياغة هوياتهم وتقييد فكرهم وتعليبهم داخل شبكة من التحديدات الثقافية، ولذلك تسعى بكل ما أوتيت من قوة لـ «تفريغ الوعي من الدور الفاعل الذي يقوم به في التمكين من فهم العالم واستيعاب القضايا التي تشغل الأفراد»[5]، بل تعمل على أن تكون الثقافة خادمة لتوجهات السلطة «مثلما هو الشأن في مختلف الدول الاشتراكية التي تحرص أن يظهر أدب بمثل رؤيتها الإيديولوجية»[6].

[1] نفسه ، ص 28.
[2] مفتي بشير، أشباح المدينة المقتولة، رواية، ص 28.
[3] نفسه ، ص 31.
[4] نفسه ، ص 32.
[5] شلنج كرس، الجسد والنظرية الاجتماعية، مرجع سابق، ص 12.
[6] مفتي بشير، أشباح المدينة المقتولة، رواية، ص 32.

الحرية النسبية في النشر، والهدنة المؤقتة بين المثقف والسلطة لن تدوم طويلا، فمع احتجاجات أكتوبر 1988 قام البوليس باعتقال الشاعر مرة ثانية «وسألوه إن كان له دور في تحريض الشباب على تخريب بلدهم، وتهديد أمن دولتهم .. سألوه تلك الأسئلة الغبية التي لا تطرح على شاعر، ورجل ناضل قديما من أجل تحرير وطنه من المستعمر»[1]، قضى أسبوعا في التحقيق، وسئل أسئلة لا تسأل إلا للمجرمين عن تهم لا معنى لها، تهم ضد سيرورة التاريخ وسنن التغيير، ولكنه «كحالم كبير رأى في انتفاضة أولئك الشباب علامة طريق، وضوءا يبزغ في نفق دامس الظلمة، لقد رأى أخيرا شبابا يخرجون إلى الشارع، ويهتفون بالحرية المتشوق لها منذ الاستقلال البعيد»[2].

حين يتمادى المثقف في معارضته، وإن لم تنجح الأساليب القمعية والرقابية في ردّه إلى حضن السلطة، ستلجأ السلطة إلى الحل الراديكالي وتأمر بتحييده نهائيا، فبعد« طول استجوابات وتحقيقات فهموا أن لا جدوى من ذلك، فأطلقوا سراحه كما تبيّن الوثائق التي منحوها لنا، ليخلوا ذمتهم من كل ما يمكن أن يحدث له في الخارج، ولكن والدي اختفى نهائيا من يومها، كأن الأرض انفتحت وابتلعته»[3].

المطلب الثاني: سلطة السينما والرؤية الفنية/ ثقافة الرقابة النقدية

اختار المؤلف تمثيلا آخر للمثقف الذي يقف في وجه السلطة، أو الذي تقف السلطة بكل مؤسساتها في وجهه، هذا المثقف مخرج سينمائي شاب، أرسل ضمن بعثة لدراسة السينما في بلغاريا، وحين عاد إلى الوطن، أراد أن يحقق طموحاته الفنية برؤية سينمائية، يقول: «كانت الفكرة الوحيدة التي استولت عليّ بعد استقراري أن أنجز أول فيلم عن حي "مارشي أتناش" والحياة كما يعيشها الناس في بساطتها ويومياتها المعتادة ... والواقعية حتى وإن لم تكن مذهبي الأول في السينما، إلا أنها بدت لي أكثر تقبلا في واقعي الجزائري الذي يحتاج إلى توصيف وتشريح ودخول إلى أعماقه الهشة رغم الصلابة التي يتظاهر بها في الخارج، وهذا التناقض بالذات بين ما هو باطني وخارجي هو الذي فكرت فيه بجدية وعمق»[4].

هذه أحلام مخرج شاب، وهاته نظرته السينمائية لواقع جزائري هش، هي عين مثقف ترى ما لا يراه الآخرون، فيسعى لتصوير وقائع الحياة كما هي، ولتحقيق أحلامه لا بد من عرض فكرة الفيلم على

[1] نفسه ، ص 35.
[2] مفتي بشير، أشباح المدينة المقتولة، رواية، ص 35.
[3] نفسه ، ص 35- 36.
[4] نفسه ، ص 155.

السلطة الرقابية أو الشرطة الوطنية للإنتاج السينمائي «لقد ذهبت إلى الشرطة الوطنية بحماس فياض لأعرض عليهم السيناريو الذي يتحدث عن وقائع حي شعبي ... بعد أن درست في الخارج، وتعلمت بفضل منحة الدولة الجزائرية كل ما يمكن تعلمه من تقنيات الإخراج السينمائي وفنياته وآلياته، دون أن أتصور أنني وأنا أطرق بابهم سأكون العدو رقم واحد لهم»[1]، ورغم شهاداته واستفادته من منحة دراسية في الخارج، إلا أن فيلمه المقترح لم يلق القبول، وسبب الرفض على حد قول أعضاء مجلس القراءة يعود إلى أن« الفكرة مستهلكة ... السيناريو ينقصه التفاؤل، أنت تتحدث عن الحياة الصعبة وليس عن الأمل عند هاته الشريحة من المجتمع ... أظنك تستلهم الواقعية الإيطالية، لكن هذه الواقعية سوداوية جدا لا تبعث على التفاؤل».[2]

هل ينسحب ويترك أحلامه تضيع؟ أم يواجه سلطة الرقابة القبلية على الأعمال الفنية؟ لقد رفض الاستسلام وقرر طرق الأبواب من جديد في محاولة يائسة لإقناع شرطة الإنتاج السينمائي بجدوى مشروعه الفني، فقابله حارس ثقيل الظل والمزاج «إنها السلطة الأولى التي ستواجهك وتتحداك، وتضعف معنوياتك ... وتشعرك تلك الطريقة الاحتقارية المتقنة الصنع أنك أصغر من حشرة، أنك لا شيء».[3]يطرده الحارس بحجة ألّا أحد من المسؤولين في المبنى، إنها حالة الفراغ التي تعيشها الدولة، يصبر شهورا ثم يعود مطاردا حلمه « في ذلك الصباح ذهبت لأبحث عن حلمي عندهم كي أقبض عليه، حلم سبع سنوات دراسة في بلغاريا من أجل أن أصير هذا المخرج الذي أتمناه ... وجدت حارسا بلا ملامح يتربص أمام الباب»[4]، وبعد إصراره على مقابلة المدير، طرحه الحارس أرضا واستدعى الشرطة« للحظة ظننت أن كل هذا ليس إلا مسرحية لتخويفي فقط، لكن الشرطة جاءت بالفعل، وألقت القبض عليّ ورمتني في الحبس على ذمة التحقيق، قضيت ليلتين دون استجواب في زنزانة إسمنتية باردة».[5]

هذا ديدن السلطة مع الفكر المخالف والرؤية المغايرة، حيث تستغل مختلف مؤسساتها الرقابية والبوليسية لإقصاء المثقف الذي لا يتفق وطروحاتها، تقوم بحصاره وعرقلته وتقزيمه، حتى يفقد الإيمان بقدرته على التغيير « يكفي أن تجد نفسك محاصرا حتى لا تعرف، ثم تشك في قدراتك العقلية، ثم ترتاب

[1] نفسه ، ص 156.
[2] نفسه ، ص 158- 159.
[3] نفسه ، ص 195.
[4] نفسه ، ص 234.
[5] نفسه ، ص 235.

في نفسك، ترتاب في أحلامك، فتضعف وتصغر ... تتمنى أن تهرب وتبتعد، لأنه في النهاية إذا واجهتهم ستخسر من البداية»[1]، سيحاربونك حتى تنهار أو تفر بجلدك وتقول:« لتذهب أحلامي إلى الجحيم .. لا أريد شيئا من هذا البلد.. لا أريد شيء ... لن أبقى لحظة واحدة في هذا البلد، لقد عملت طوال الشهر على تحضير أوراق للسفر من جديد إلى بلغاريا، أو أي بلد غربي آخر».[2]

المطلب الثالث: سلطة الإعلام المنفتح/ ثقافة التدين المتشدد

تمثيل أخير يسوقه بشير مفتي في روايته عن المثقف المختلف الذي لا يساير التيارات الإيديولوجية السائدة، لقد اختار هذه المرة صوتا نسائيا وإعلاميا يقف أمام سلطة دينية متشددة، لا تجد حرجا في تكفير وتحييد من يخالفها، فمع صعود التيار الإسلامي المتشدد واغتراره بكثرة الأتباع، وتقسيمه للمواطنين بين أنا تابع وآخر مخالف، حتى اعتقد بحصرية امتلاك الحقيقة والأحقية، يقول أحد الإرهابيين:«كنا نعتقد أننا الأقوى، فهم لا يملكون إلا الجيش والأمن، وأما نحن فكل الشعب معنا ... وحتى قادر كان يسخر من كمشة المثقفين الذين ينتقدوننا ويقول: هؤلاء الكلاب سيدفعون الثمن غاليا»[3]، والواضح في هذا المقتطف استعمال الضمائر نحن وهم واسم الإشارة هؤلاء للتفريق بين الأنا والآخر.

الصوت النسائي الإعلامي الذي تحدثنا عنه في الفقرة السابقة، مثّله الروائي في شخص الصحفية وردة سنان، وإني لأراه أحسن اختيار الاسم الذي يجمع بين جمالية الورد وبين بشاعة الحرب وحدّة السنان، هاته اليافعة التي «دخلت الجامعة، وتخرجت من معهد الإعلام والصحافة، وتعمل صحفية في جريدة مستقلة»[4]، كانت محبوبة جارها السابق والإرهابي الحالي، لمّا جاءته الأوامر بقتلها احتار في أمره، يقول عن نفسه: «من باب الفضول اشتريت تلك الجريدة لأقرأ ما كانت تكتبه، فهالني أنها تنتقد المتدينين وسلوكهم، وتقول إنهم يريدون تأسيس دولة معادية للحرية والحقوق، وإن المرأة في هذه الدولة لا قيمة ولا مكانة لها إلا أن تكون زوجة صالحة في البيت، تعمل على رضا زوجها وتربية أبنائها»[5]، وهذا الرأي مخالف لرأي السلطة الدينية الناشئة، فيتساءل عشيقها السابق «ماذا فعلنا لها حتى تقول عنا كل ذلك

[1] نفسه ، ص 229– 230.
[2] مفتي بشير، أشباح المدينة المقتولة، رواية، ص 235– 236.
[3] نفسه، ص 144.
[4] نفسه ، ص 135.
[5] نفسه ، ص 135– 136.

الكلام المشين، وتظن أنها بذلك تدافع عن حرية المرأة وحقوقها؟ أليست حريتها وحقوقها تكمنان في الشريعة السمحاء التي أنصفتها، وجعلتها مكرمة ومقدسة عندنا؟»[1].

لم يتم إنذار الصحفية من قبل السلطة الدينية الصاعدة، كما تم الأمر مع أصحاب الحانات والعاهرات، بل جاءت الأوامر بتصفيتها دون أن يحددوا الطريقة والتوقيت «قالوا فقط إنه لا بد أن تسلط الرعب في قلوب هؤلاء الصحفيين التابعين للنظام فيعتبروا من ذلك، أو يصمتوا نهائيا»[2]، وحين دقت ساعة القتل، استقبلت الصحفية موتها بكل هدوء فلم تجزع «بقيت عيناها متربصتين بعيني كأنها تقول لي اقتلني أيها النذل، فلن أتضرع لك، لن أتخاذل أمامك أيها الجبان، بضربة واحدة من الخنجر فتحت رقبتها وسال دمها على جسمها»[3]، وهكذا تمت تصفية المثقف المخالف كحل جذري لإسكاته، ولبعث رسائل للبقية حتى يصطفوا أو ليسكتوا إلى الأبد.

الخاتمة:

خلصت هذه الدراسة إلى النتائج التالية:

- أنشأت الثقافة السلطة، وشكّلت السلطة الثقافة، وبقي وضع المثقف وموقعه مرتبطا بوضع السلطة وموقعها؛ فهما إما في حالة صراع، وإما في حالة هدنة ولكن الغالب هو حالة الصراع.
- تعمل السلطة على تفريغ الوعي من دوره في التمكين من استيعاب القضايا التي تشغل الأفراد، عبر اختزال الماضي والحاضر والمستقبل في سردية هووية كبرى، استنادا إلى بنيات ثقافية (الهوية، التاريخ، القومية، الإيديولوجيا...)، والتي يعتبر الخروج عنها وعن إطارها، مروقا يستدعي تدخّل السلطة عبر مختلف مؤسساتها لتقويمه.
- تستند الثقافة على سلطتها الرمزية وتأثيرها على الأتباع في مواجهة السلطة؛ وتستخدم لذلك سلطة المعرفة والتعبئة من أجل خلخلة النظام وتغيير السلطة.

[1] نفسه ، ص 146.
[2] مفتي بشير، أشباح المدينة المقتولة، رواية، ص 145.
[3] نفسه، ص 147.

- في رواية أشباح المدينة المقتولة تمثيلات متعددة للمثقف الذي يقف في وجه السلطة، أو الذي تقف السلطة في وجهه: من بينها الكاتب والمخرج والصحفية، والذين يواجهون سلطة بعدة أوجه: سياسية، بوليسية، ثقافية و دينيةمتشددة.

- لقد استطاع المبدع بشير مفتي أن يتمثل مختلف أشكال علاقة الأنا المثقف بالآخر السلطوي، هذه العلاقة التي تتجلى عبر الرواية صراعية، شائكة وعنيفة حد الموت.

قائمة المصادر والمراجع:

أولا: الكتب :

- السليماني أحمد ياسين، التجليات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر في الشعر العربي المعاصر، ط 1، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2009.
- الغذامي عبد الله محمد، القبيلة والقبائلية أو هويات ما بعد الحداثة، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/بيروت، 2009.
- المسكيني فتحي، الكوجيطو المجروح، أسئلة الهوية في الفلسفة المعاصرة، ط1، منشورات الاختلاف، ضفاف، الجزائر، بيروت، 2013.
- المصباحي عبد الرزاق، الأنساق السردية المخاتلة، ط 1، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2017.
- المناصرة عز الدين، الهويات والتعددية اللغوية (قراءات في ضوء النقد الثقافي المقارن)، د ط، الصايل للنشر والتوزيع، عمان،2014.
- بعلي حفناوي، في نظرية النقد الثقافي المقارن، المنطلقات، المرجعيات، المنهجيات، ط 1،منشورات الاختلاف، الجزائر، 2007.
- حسين محسن محمد ، المثقف اللامنتمي في التراث الإسلامي، دراسة عن قمع الدولة للفكر الآخر، ط 1، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، دون بلد، 2016.
- ساردار زيودين، فان لون يورين، الدراسات الثقافية، ترجمة وفاء عبد القادر، ط 1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003.
- شلنج كرس، الجسد والنظرية الاجتماعية، ترجمة منى البحر، نجيب الحصادي، ط 1، دار العين للنشر، القاهرة، كلمة، أبو ظبي، 2008.

– موسى صالح بشرى، بويطيقا الثقافة، نحو نظرية شعرية في النقد الثقافي، ط 1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2012.

– عليمات يوسف، جماليات التحليل الثقافي، الشعر الجاهلي نموذجا، تقديم عبد القادر الرباعي، ط 1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2004.

– غرينبلات وآخرون، التاريخانية الجديدة والأدب، تقديم وترجمة لحسن أحمامة، ط1، المركز الثقافي للكتاب، الدار البيضاء/ بيروت، 2018.

– كاظم علاء جواد، الفرد والمصير، بحث في الإنثروبولوجيا الثقافية، د ط، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2011.

– مفتي بشير، أشباح المدينة المقتولة، رواية، ط 2، منشورات ضفاف، بيروت، الاختلاف، الجزائر، 2017.

ثانيا: المقالات

– كمالي مسعود، تصور الآخر تمييز ممأسس وعنصرية ثقافية، مجلة الاستغراب، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، بيروت، العدد 10، السنة الرابعة 1439 هـ شتاء 2018.